تي ياع!

قصة بقلم محفوظ عبد الرحمن

الناس يضايقونني عندما يصطدمون بي .. شارع الموسكي مزدحم ... قلبي يغوص في يد باردة غير ملموسة .. غثيان في حلقي يجعلني اقرف من كل شيء .. أخذت ارقب ذراعي الذي صنع زاوية مع جسدي وهو يصطدم بالناس .. عندما اصطدم « بشيخ » صدمة احسست بلذة وضيق .. كنت اريد ضيقا اكثر يقتل ، يغني نهائيا من الوجود ... ذات مرة كان لدي « كالو » يؤلمني في قدمي .. وكنت ادع الرجل يضغط عليه وهو يلمع الحذاء .. كنت أتألم .. ولم انبهه أبدا .. كنت أذهب اليه لاعاني هذا العذاب واتحمله ... وكنت اجد احساسا بالراحة وانا اتحمل العذاب ...

ولكنني ـ وانا أسير في شارع الموسكي ـ كنت اضيق بتحملي العذاب ... كنت احس بانني يجب ان انهار .. ان اسقط على الارض ، وتنزف من روحي دماء.

كانت اصابعي في جيبي تقبض على « الدبلة » كأنها تخاف عليها من ثقب غير منظور في جيبي ... كنت اخرجها من جيبي في بعض الاحيان ، وانا اقبض عليها تماما حتى لا يراها احد من المسائرين ... لكنني كنت اخاف من نظراتهم ان تخترق يدي وتخترق رأسي .. خوف غامض من الفضيحة .. برودة تملأ داخلي .. مرارة حلقي احاول ان أزيلها بلساني دون جدوى .

لقد اعطتني اياها فجأة .. لم نتحدث في ذلك من قبل .. ولم اطلبها مثلما فعلت في « الاسورة » ولم تقترحها هي كما حدث في « السلسلة » التي كنت قد اهديتها لها اثناء الخطوبة .

لم يبق شيء نستطيع ان نبيعه ... كان الجوع قاسيا ... كان الجبن والزيتون قد اصبحا عذابا يوميا لنا .. الخبز تغير طعمه في فمي ... لم تكن انعام تشكو ابدا .. كانت تصمت .. وعندما كانت ترى شيئا كئيبا كانت الدموع تتساقط في قلبها .. لكنها كانت تنفجر غاضبة لاسباب صغيرة .

فكرت لاول مرة في انها ربما تركتني .. هجرتني الى اهلها في « المحلة » .. ماذا يمنع ؟ سيقولون هناك في مجالس الثرثرة انها « مغبونة » .. لماذا لم يستطع ان يطعمها .. انه قد فقد عمله ، ولم يستطع ان يجد عملا اخر .. انني اخاف من ان تذهب .. وقلبي يرتجف عندما اتصورها تستمع الى كلام الناس .. ترى هل تستطيع ان تميز بين الحق وغير الحق؟

لكنها لم تذهب ، بل اعطتني الدبلة ، وقالت لي ان ابيعهما ـ الدبلتين ـ ... نظرت في وجهها ... كانت عيناها الى الارض .. وذقنها يرتعش.. ووراء « النتيجة » على الحائط ، وبدت كأنها فوق رأسها .. منظر مضحك .. مضحك الى حد البكاء ... ظللت انظر اليها ، ويدي ملتصقة بيدها، والدبلة بين اليدين .. حولها عرق .. لم أتكلم .. رفعت وجهها عندما مر وقت طويل ...

كانت تريد ان تبكي .. حزن وعاد .. تكلمت لتأكل ببرودها الرغبة في البكاء .. قالت لي ان ابيعها لرجل معين في شارع الموسكي ... لانه مضمون !

انني أعرفه .. هو نفسه الذي اشترى مني الاسورة والسلسلة ... انني اكرهه .. اكره « الحسنة » الكبيرة الراقدة فوق انفه .. في المرتين الفائتتين كنت اتمنى لو انني انتزعتها بسكين ، كما كنت أفعل بالحفر الموجودة في البطاطس وانا صغير أساعد امي في تقشيرها .

انني لم اثر ... بل خرجت بالدبلة دون ان اقول كلمة واحدة .. عربة « كارو » واقفة منذ وقت طويل فارغة لا تعمل امام باب البيت .. هززت راسي ، كان الحزن ثقيلا عليها جدا ... كانت الثورة مرارة في فمي فحسب .. لو قالوا لي ان هذا سيحدث ـ منذ سنوات ـ لما صدقت.. كنت اتوقع عندئذ انني سأثور .. سأقتل احدا .. ساعلق نفسي في جبل ...

ان اسمي مكتوب بداخلها .. لقد اخطأ والدي في اختيار اسمي... ولكنني كنت احب ان اقراه مرات على الدبلة .. كنت اطلب فيها ان تخلصها لاقرأ الاسم والتاريخ .. كانت تتشاءم من خلعها ، ولكنها كانت تفعل من اجل ان ابدوا مسرورا ..

لقد اشتريتها عندما أتت انعام الى القاهرة مع اسرتها .. لم اخبرها انني اشتريت الدبلتين .. دخلنا السينما يومها .. وفي الظلام امسكت بيدها الصغيرة السمينة .. وضعت في اصبعها الدبلة ..

احسست لحظتها بانها تلتهمني بجانب عينها .. انها منفعلة الى حد تعجز فيه ان تقول شيئا .. وكتمت ضحكتي التي حاول ان يخرجها انفعالي ... واخذت اتصنع التفرج.

وعندما خرجنا امسكت بيدها في يدي .. وقبل ان تصل الى المنزل، قلت لها ان تخلع الدبلة ، خوفا من ان يراها اهلها ، ويثوروا لهذا التسرع ، وخلعتها حينئذ وهي تنظر في عيني ... وقالت :

ـ دائما تخطئ .. لقد كان المفروض ان تضعها في يدي اليمنى !!

ووضعتها في يدي اليمنى بعد اسبوع ... كان العرق يبلل جبهتي .. انني ما زلت اذكر هذا لقد ضايقني يومها العرق .. وقبلتها امام الناس فوق جبهتها الباردة ... كان الخجل يخنق وعيي حتى لم أعد اميز شيئا حولي .. وتسللت الى غرفة في الداخل ، وقبلتها في شفتيها! الشارع مليء بالطنين .. الناس باهتون . الجو رمادي .. وهناك عفونة غامضة المصدر ... كم تساوي ذكرياتنا العزيزة ؟.. قرش ... جنيه .. مائه جنيه ... مليون !! انني لم اعد اعرف .. لكنني سابيع ذكرياتي بجنيهين ، لا تزيد الا بضعة قروش ... « رجل مضمون » هكذا قالت انعام عندما اعطتني الدبلة .. « رجل مضمون » !! انني اتمنى ان اقتله وان اقتل عشرة اشخاص آخرين مضمونين .. كم اتمنى ان اركع عند حجر مهجور .. مثل الذي رأيته في « تونه الجبل » وانا صغير .. حجر وحيد بين الرمال ... اريد ان احتضنه .. واظل ابكي حتى تنزف من عيني الدماء ..

« لا مؤاخذة » ونظرت في وجهه دون ان ارد عليه .. تمنيت لحظتها لو انني كنت قد دست على قدمه هو دون ان اعتذر

حشرة ما .. حاولت ان اتذكرها دون جدوى ... تستسلم عندما ترى الخطر ... تتصنع الموت حتى تتركها .. لكنها تموت فعلا !! ترى هل نحن مثلها هل نقاوم ام نستسلم ؟

مقاومة ام استسلام؟ استلام ام مقاومة ؟ آه ان المرأة التي تقف عند دكان الاحذية زوجتي الى حد كبير .. سوى انها تبتسم !

مقاومة ام استسلام ؟.. ووجدت « الصايغ » امامي فجأة .. كدت اعود .. أجدى .. اندس بين الناس كانني لم اكن جئت .. لو رآني وقابلني بعد ذلك سانكر انني ذهبت ..

استسلام ام استسلام ؟.. دخلت .. خلعت الدبلة من يدي ... رأتني امرأة تضع على وجهها الابيض السميك « بيشه » .. رفع الرجل وجهه .. ابتسم لي .. يا للفظاعة .. سكين وامزقها من وجهه ... اسنانه سوداء ... وجهه محترم كانه قد وقف في الشمس طول عمره... رجل كان لدينا في المحلة يشبهه .. كان نصابا .. يكتب الشكاوى.. ويتوسط في القضايا .. ويهدد الناس .. ويسرق الجميع ..

ـ نعم .. اريد ان ابيع الدبلتين !

لو انه نظر الي باستنكار !! لكنه لم يفعل .. شعرت بضيق هائل .. كرهته اكثر .. ابعدت عيني عن وجهه حتى لا يلحظ طول تحديقي فيه .. انكفأ على الدبلتين كأنه يقرأ فيهما الذكريات ..

المرأة ذات « البيشه » تطل بنظراتها مشوقة الى ما يحدث .. عندما رأت نظراتي اسرعت بالهرب منها .. ستروي ما رأت لجيرانها وفي فمها رثاء ... صممت ان اعذبها .. اخذت انظر اليها .. شعرت بالحرج وشدت يدها تثبت البيشه .. ولكنني ظللت أنظر ..

ـ مائة وستون قرشا !!

ـ مائة وستون قرشا ؟؟

قلتها في دهشة غاضبة .. لكن ما الجدوى ؟ ان الشرير يصر دائما على انه « يكارمني » وانه اعطاني اكثر مما يجب !!

سنأكل جيدا لاول مرة منذ شهور .. كان معنا نقود منذ وقت قريب ، لكننا دفعناها للايجار واكلنا جبنا وزيتونا .. مطاردات المكوجي سخيفة..

وصاحب المنزل دمه ثقيل .

وضعت المائة وستين قرشا في جيبي ... كنت قد اصبحت متعبا لا اقوى حتى على التنهد آه لو جاءت لي الفرصة مرة اخرى ، ووجدت عملا ... اول شيء سأفعله هو ان اشتري دبلتيين من عند رجل اخر بعيد جدا .. وسأذهب الى انعام ، واقول لها :

ـ اننا ما زلنا صغيرين .. وسنضع ذكريات كثيرة !

وسأضع الدبلة في اصبعها .. ثم اقبلها .

لو حدث هذا بعد شهر او شهرين ، فسيمكنني ان اشتري الدبلتين قبل عيد ميلادها .. ساهمس في اذنها :

ـ ماذا تعني اثنان وعشرون عاما بالنسبة لفتاة ؟ ان امامك عشرين عاما .. ثلاثين .. اربعين .. من يدري .. سنضع اشياء كثيرة جدا في هذا الزمن الطويل .. ستنسينا الاشياء القادمة ما حدث .

وكدت ابتسم .. لولا ان باغتتني صورتها وهي منتظرة في المنزل الان .. وحدها .. في الظلام .. تبكي .. تبكي .. تبكي .

الناس كثيرون ، يزحمون الشارع ... الاسى يزحم قلبي .. واتذكر ذقنها يرتعش مقاومة للبكاء .. وتهتز روحي .. واجد الدموع تملأ عيني، ويختلط الطريق امامي .. ويصبح الناس اشباحا تغيب وتتساقط في حبات الدموع !

القاهرة — محفوظ عبد الرحمن

روايات الليالي

الحارث الأكبر الغساني

اميل حبشي الأشقر

رواية تاريخية أدبية غرامية

بطولة جرأة وشهامة اكاذيب امانة اخلاص

حياة أعظم ملوك الغساسنة صور رائعة عن عزة العرب وعظمة النفس والحب الطاهر البريء ... أخطر مؤامرة قام بها أحد عظماء دولة من أجل فتاة ...

غرام ظهير وصراع بين ملكين ينتصر فيه الحب

٤٥٠ صفحة — الثمن ٥٠٠ غل

منشورات دار مكتبة الأندلس - بيروت